

من الرفوف إلى الشاشات: تحول مجموعات مكتبة جامعة إيدج هيل

آنا فرانسا



الملخص:

يصف المقال استجابة مكتبة جامعة إيدج هيل لإغلاق الحرم خلال جائحة كوفيد-19، وتحول تنمية المجموعات إلى أولوية الرقمي أولاً. ويشرح تشخيص احتياجات الطلاب من الكتب الدراسية عبر بيانات الإعارة وقوائم القراءة والاستخدام والتواصل الأكاديمي، وبناء مبررات التمويل. ويعرض تنفيذ برنامج للكتب الإلكترونية باستخدام (BibliU) ونماذج اقتناء مرنة واتفاقات مع ناشرين، مع مراعاة إمكانية الوصول. ويناقش ارتفاع الأسعار ونقص التراخيص وتفاوت احتياجات التخصصات، والبدائل الورقية والرقمنة المؤقتة والكتب المفتوحة. كما يتناول تقييم الاستخدام والأثر لدعم استمرار الاستثمار. وتبرز التجربة التوتر بين ضرورة الإتاحة الرقمية والقيود المالية، والحاجة إلى نماذج تسعير أكثر عدلاً واستدامة، مع استمرار دور المطبوع في مجموعة متوازنة تدعم التعليم الشامل.

الكلمات المفتاحية: تنمية المجموعات، الكتب الإلكترونية، المكتبات الجامعية، جائحة كوفيد-19، استدامة الإتاحة

مقدمة:

أعلنت الحكومة البريطانية في مارس 2020 إغلاق المقرات الجامعية، إلى جانب أعمال كثيرة، للحد من انتشار كوفيد-19. وانتقلت جامعة إيدج هيل من النشاط المكثف إلى الإغلاق خلال أيام. وأحدث الحجر تغييراً كبيراً وسريعاً، إذ بدأت الجامعة تحويل عملها كله إلى نموذج إلكتروني، وهو أمر صعب حين تكون معظم الخدمات مبنية على التواصل والمعاملات الحضرية. ويعرض المقال استجابة خدمات المكتبة والتعلم، خصوصاً تحويل المجموعات باتباع سياسة شراء «الرقمي أولاً» وإطلاق برنامج للكتب الدراسية الإلكترونية لدعم الطلاب.

المجموعة قبل الجائحة:

تقع الجامعة في غرب لانكشير قرب ليفربول ومانشستر. وتأسست عام 1885 بوصفها أول كلية غير طائفية لتدريب المعلمين، ثم أصبحت جامعة متعددة التخصصات، تتميز بالصحة والعلوم الاجتماعية. وتلتزم منذ زمن بتوسيع فرص التعليم العالي، وتعد إتاحة الفرص للجميع محورًا في رؤيتها. وتخدم أكثر من 13 ألف طالب بكالوريوس ودراسات عليا، بدوام كامل أو جزئي.

وفي 2018 افتتحتنا مبنى (Catalyst) الحديث، الذي جمع خدمات المكتبة والتعلم وخدمات الطلاب والتوظيف في نموذج متكامل. وبمقهى في الطابق الأرضي ومساحات اجتماعية كثيرة، صُمم لتشجيع التفاعل والدراسة الجماعية والتعاون. وأصبح قلب الحرم، ولاقى استحسانًا كبيرًا من الطلاب.

ولأن الجامعة ذات حرم مركزي، يعيش كثير من الطلاب فيه أو قريبًا منه، فتكون استعارة كتاب مطبوع سهلة عادة، خلًا لجامعات كبيرة متعددة المقار يتشتت طلابها ويعتمدون أكثر على الوصول الرقمي.

وأظهر تحليل مقتنياتنا أوائل مارس 2020 أن 58% من الكتب مطبوعة و42% إلكترونية. ولذلك كانت المجموعة قبل الجائحة متمحورة حول المطبوع، ويشمل قسم مهم منها مواد قوائم القراءة عالية الطلب. وبوصفنا جامعة تركز على التدريس، لم تكن لدينا المجموعات الضخمة التي تتميز بها الجامعات البحثية. وقبل الانتقال إلى المبنى الجديد نُقحت المجموعات بكثافة، حتى قُلّت الكتب التي لا تُستعار. وكانت المجموعة الإلكترونية تتوسع، لكن الانتقال إليها كان تدريجيًا.

الاستجابة للإغلاق:

تغير ذلك كله في مارس 2020 حين واجهنا التحول المفاجئ إلى الخدمات الإلكترونية. وكان من التحديات العاجلة إتاحة موارد يحتاجها الطلاب ولا توجد إلا ورقياً، وبخاصة الكتب الدراسية. وقد يختلف تعريف الكتاب الدراسي ودوره، لكنه يمثل للمكتبة عادة قراءة أساسية في المنهج وطلبًا مرتفعًا على النسخ. وتشتري المكتبات نسخًا مطبوعة متعددة بتكلفة كبيرة.

وعند إدخال النسخ الرقمية، حاول الناشرون غالبًا تكرار نموذج نسخة لكل طالب، فأصبح الوصول الرقمي المؤسسي مكلفًا للغاية، إن أتيح أصلًا. ويشرح مقال غابي ديل فالي في (VoX) بعض مشكلات ارتفاع التكلفة، رغم تركيزه على الولايات المتحدة. وهكذا صارت عبارة الكتاب الدراسي، ورقياً أو إلكترونياً، مرادفة للتكلفة المرتفعة.

واستمر النقاش سنوات حول نقص الإتاحة وغلائها، ثم كشفت الجائحة المشكلة وخلقت إلحاحًا غير مسبوق. ولحسن الحظ قدم ناشرون وموردون وصولًا مجانيًا مؤقتًا، واستفدنا منه لإتاحة محتوى إضافي، بما فيه كتب دراسية. ورغم القلق من رفع التوقعات لاحقًا، كانت الأولوية وصول الطلاب إلى ما يحتاجونه خلال الاختبارات، لإكمال العام والتخرج. ومنحتنا الاستجابة الأولية للاحتياجات العاجلة مهلة للتخطيط الاستراتيجي لعام 2020-2021.

واتضح سريعًا أن الأثر طويل وواسع، وأن تعديلات الإغلاق ستحتاج إلى التمديد والتكيف في العام التالي. واتضح كذلك أن ميزانية الموارد المحدودة لا تكاد تغطي الكتب الإلكترونية والموارد الجديدة اللازمة للتعليم المدمج.

وكانت مراجعة تنمية المجموعات قد بدأت قبل الجائحة؛ فوسّعنا وحدّثنا ملف الاقتناء المدفوع بالطلب (DDA) مع (ProQuest)، وجربنا لأول مرة الاقتناء القائم على الأدلة (EBA)، وبدأنا برامج مباشرة مع ناشرين في التربية والحوسبة والطب والأعمال. وبدا الانتقال إلى الكتب الدراسية امتدادًا طبيعيًا.

وأعدنا مبررات استثمار تؤكد ضرورة استمرار الوصول الرقمي لتجربة طلابية جيدة في التعليم المدمج، خصوصًا عند تقييد دخول المكتبة أو تعذر الحضور. ودمج بيانات إعاره المطبوع وقوائم القراءة وإحصاءات الاستخدام خلال الإتاحة المجانية ومعرفة فريق التواصل الأكاديمي، حددنا قرابة أربعمئة عنوان لم نستطع الحصول عليها إلكترونيًا بترخيص مؤسسي من الموردين المعتادين.

وقدما طلبًا مرتبطًا للاشتراك في (ClinicalKey Student) من إلسيفير، لتغطية جانب كبير من احتياجات كلية الصحة والعلوم الاجتماعية والطب. وقبل الطلاب وحُصص التمويل.

التنفيذ:

بعد مناقشة موردين، اخترنا (BibliU) للكتب الدراسية والدراسات المطولة، واتفقنا على إيداع مبلغ لتمويل الوصول بنموذج الاقتناء الذي يفعله المستخدم (UAA). ورأينا فيه مرونة لإدخال العناوين وإخراجها، وكفاءة لأن الدفع يكون على الاستخدام الفعلي. وكانت لدينا تراخيص قليلة سابقة، فالمنصة مألوفة للطلاب.

كما عكست درجة المنصة الكاملة في تقييم (ASPIRE) للإتاحة أولوية تيسير الوصول لدى الشركة، بما يتفق مع هدفنا الاستراتيجي لتحسين إتاحة المحتوى والأنظمة.

وقضينا الصيف في تنقيح قائمة العناوين والاتفاق على النهائي منها. وتبين أن كثيرًا منها سيكلف أكثر من المتوقع، بسبب ارتفاع أعداد الطلاب المكافئة للدوام الكامل وظهورها في قوائم متعددة. وكانت عناوين كثيرة من (Sage)، وهو ناشر مهم لبرامج كلية التربية. وبعد مناقشته، اتفقنا على وصول مؤسسي إلى جميع عناوينه عبر (BibliU) بمبلغ إجمالي، وتخصيص الباقي لعناوين (UAA).

وبدأ الوصول في 28 سبتمبر، وروّج فريق التواصل الأكاديمي للمبادرة. ووقت كتابة التجربة كنا في الأسبوع الثالث تقريبًا من العام. وتشير البوادر إلى استقبال جيد: زادت تسجيلات القراء الجدد في المنصة أكثر من 1300%، وارتفع الاستخدام مع بدء الفصل. وساعدت المبادرة على تعريف المجتمع الأكاديمي بتحديات توفير المحتوى الإلكتروني وزيادة تقديره للجهود.

التحديات:

لم تخلُ الأشهر الستة بين مارس وسبتمبر 2020 من صعوبات. نجحنا في كثير من العناوين، لكن لم نحصل على كل القائمة. ورغم تعقيد القضية، ظلت التكلفة العائق الأهم، وكانت أسعار بعض العناوين صادمة.

ولأن الطلب السابق على المطبوع أساس الاختيار، دعمت معظم عناوين الملف الأولي كليتي التربية والصحة والعلوم الاجتماعية والطب، حيث الأعداد الأكبر. وأثار ذلك مخاوف من تفاوت الفائدة، وأن يخسر طلاب التاريخ والفنون الإبداعية وغيرها من المجالات الأقل اعتمادًا على نصوص أساسية محددة في البيئة الرقمية.

فقوائم الآداب والإنسانيات أطول عادة، ويُشجع الطلاب على القراءة الواسعة. ورغم محاولة توفير تراخيص مؤسسية لجميع القوائم، بقيت عناوين كثيرة، خصوصًا بكلية الآداب والعلوم، ورقية فقط. ولا يكون طلب نسخة رقمية عبر (BibliU) عمليًا دائمًا لقلة المحتاجين إليها.

وحاولنا المعالجة باستثمارات في أنواع أخرى من المحتوى، والعمل مع الأقسام لفهم احتياجاتها. وشملت البدائل شراء نسخ ورقية للطلاب، واقتراح كتب إلكترونية بديلة، وتعظيم الرقمنة بالاستفادة من التعديل المؤقت لترخيص وكالة ترخيص حق المؤلف للتعليم العالي، الذي أتاح نسخ أو رقمنة حتى 20% خلال 2020-2021.

لكن الرجوع إلى الورقي ليس مثاليًا، وقد يضعف استهلاك الكتب الإلكترونية معظم الميزانية قدرتنا على شراء غيرها. وحصلنا على تمويل هذا العام، دون ضمان استمراره. وما زال الأثر المالي الكامل للجائحة مجهولًا، لكن يُرجَّح أن تتعرض الميزانيات لضغوط تستمر سنوات، مما دفع الجامعات إلى طلب تخفيضات عاجلة من الناشرين.

وتتعرض ميزانيات المكتبات لضغوط من جهات متعددة، ولا تملك مؤسسات كثيرة مآلاً لاستدامة السوق الحالية. لا نتوقع المجانية، وندرك حاجة الناشر إلى الربح، لكن السوق غير عادلة بوضوح، والعجز عن شراء المواد يخلق التعلم والبحث، بما يضر الجامعات والناشرين معًا.

ورغم ذلك، رأينا أن مخاطر عدم توفير الكتب الإلكترونية أكبر من أن تُقبل. فمع فتح المكتبة حضورًا وقت الكتابة، ظلت القيود المتزايدة وعزل الطلاب والإغلاقات التالية تجعلها أولوية للمستقبل المنظور.

ومن الجوانب الإيجابية زيادة الناشرين الجامعيين والأكاديميين الذين يوفرّون كتبًا مفتوحة لتحسين الإتاحة وإثبات أن التكلفة ليست حتمًا باهظة. وأطلقت المكتبات دعوة مشتركة قادتها (Jisc) لأسعار أعدل وأكثر استدامة.

ولا نعرف إن كان النقاش سيحقق تغييرًا ملموسًا طويل الأجل، وقد يشك بعضهم في قدرته على خفض التكلفة بالحجم المطلوب. لكن توجد بوادر تعاطف من ناشرين واستعداد للتغيير. وكان دعم كثير منهم ومن الموردين خلال الجائحة ممتازًا، ونرجو أن يمهّد لحوار أكثر بناء.

خاتمة:

سنبداً في الأشهر المقبلة تقييم المبادرة وتحديد أثرها، وخصوصًا تقديم أدلة للجامعة تدعم استمرار الاستثمار. وتتيح (BibliU) لوحة تحليل لمراقبة الاستخدام والأداء وفهم تفاعل الطلاب، وربما بحث علاقات محتملة مستقبلاً بين الوصول والتقدم والتحصيل.

وتعمل الجامعات في قطاع شديد التنظيم تدقق هيئة (Office for Students) في مخرجاته، وتتدخل عند أدنى مؤشرات تراجع الأداء. ونرى الكتب الإلكترونية جزءًا أساسيًا من خدمات تحسّن الرضا والنجاح في هذه الظروف وما بعدها.

ومع ذلك، فالتكلفة غير مستدامة، وإذا لم يتبن الناشر نماذج أعدل وأقل كلفة، فسيصعب تدبير المال من ميزانيات منهكة، مما يمثل خطرًا كبيرًا على المكتبات ومؤسساتها.

ونعتقد أن المطبوع سيظل بعد الجائحة جزءًا من تنمية المجموعات، خصوصًا لبعض التخصصات، وتتطلع إلى تشجيع الطلاب مجددًا على الاستفادة الكاملة من المبنى والمقتنيات. لكن الموارد الرقمية ستدعمه بصورة متزايدة، وستظل الأولوية الشرائية «الرقمي أولاً» في الوقت الراهن.

لقد سرّعت الجائحة التحول، لكن المكتبات تعرف فوائد الكتب الإلكترونية منذ مدة. ونرى إنشاء البرنامج أكثر من وسيلة مؤقتة؛ فهو جزء من فلسفة مؤسسية تسعى إلى تعليم شامل وميسر لجميع الطلاب، وهذه القيم أهم الآن من أي وقت.

المراجع:

- David Kernohan and Vivien Rolfe, "Opening textbooks," Wonkhe, December 8, 2017, <https://wonkhe.com/blogs/textbooks-a-tipping-point/> (accessed 15 January 2021).
- Gaby Del Vale, "The high cost of college textbooks, explained," Vox, March 6, 2019, <https://www.vox.com/the-goods/2019/3/6/18252322/college-textbooks-cost-expensive-pearson-cengage-mcgraw-hill> (accessed 15 January 2021).
- "ASPIRE review," textBOX, last modified February 29, 2020, <https://www.textboxdigital.com/aspiresetabaseplatforms/BibliU> (accessed 15 January 2021).
- Jack Grove, "Cut UK academic publishing fees by 25 per cent, urge universities," Times Higher Education, June 17, 2020, <https://www.timeshighereducation.com/news/cut-uk-academic-publishing-fees-25per-cent-urge-universities> (accessed 15 January 2020).
- Caroline MacKay, "A new generation of university presses is changing publishing," Wonkhe, September 26, 2019, <https://wonkhe.com/blogs/new-generation-presses-changing/> (accessed 15 January 2021).
- Suzanne Tatham and Annette Moore, "How valuable are e-textbooks to the student experience? An analysis of e-textbook provision at the University of Sussex," Against the Grain 31, no. 3 (2019): 22-24, <https://www.charleston-hub.com/2019/07/v31-3-june-2019-full-issue/> (accessed 15 January 2021).